

فلاسفة عظام فشلوا في الحب

أندرو شيفر

ترجمة: أماني زياتي

الفهرس

- مقدمة
- بيتر أبلارد (1142-1079)
- لويس ألتوسر (1990-1918)
- القديس توماس أكويناس (1274-1225)
- أرسطو أو أرسطوطاليس (322-374 ق.م)
- القديس أغسطينوس (430-354)
- سيمون دي بوفوار (1986-1908)
- هنري وورد بيتشر (1887-1813)
- جون كالفن (1564-1509)
- ألبير كامو (1960-1913)
- نيكولاس تشامفورت (1794-1741)
- أوغست كومت (1857-1798)
- رينيه ديسكارتس (1650-1596)
- جون ديوي (1952-1859)
- دينيس ديدرو (1784-1713)
- ديوجينس المتشائم (نحو 412 – 323 ق.م)
- فيودور دوستويفسكي (1881-1821)
- فريديك أنجليس (1895-1820)
- يوهان فولفغانغ فون غوته (1832-1749)
- جورج فيلهلم فريديش هيغل (1770-1831)
- مارتن هايدغر (1976-1889)
- ديفيد هيوم (1776-1711)
- إيمانويل كانت (1804-1724)
- سورين كيركيغارد (1855-1813)
- جون لوك (1704-1632)
- تيتوس لوكريتيوس (نحو 99- نحو 55 ق.م)
- فريديك نيتشه (1900-1844)
- بليتيو أو أفلان (نحو 427 – نحو 347)
- آين راند (1982-1905)
- جين جاك روسو (1778-1712)
- بيرتراند رسل (1970-1872)
- آرثر سكوبينهاور (1860-1788)
- سينيكا الأصغر (نحو 4 ق.م- 65 ب.م)
- سقراط (469-399 ق.م)
- إيمانويل سويدنبورغ (1772-1688)
- هنري ديفيد ثورو (1862-1817)
- ليو تولستوي (1910-1828)

مقدمة

"إنه من اللطيف دائماً أن تعرف أنه مهما بلغت درجة السوء التي دمرت بها حياتك الغرامية، هنالك شخص آخر فعل أسوأ بكثير"

- نيل بولاك

كلنا لدينا أسئلة عن الحب، كلنا نريد أن نعرف أسرار العلاقات الناجحة. هل هي "المنشودة"؟ هل من المتقبل أن أواعد رئيسي؟ كيف لي أن أعرف إن كان زوجي يخون؟ يبدو أنه من البديهي أنه يجب علينا أن نبحث عن الأجوبة لدى رجال حكماء ونساء حكيما. تفكر الفلاسفة في أكثر الأسئلة إشكالية، من الأخلاق إلى السياسة لغاية حقيقة الوجود. لو كان هنالك من يستطيع تدريسنا مفهوماً تجريدياً كالحب، فالفلاسفة - "محبى الحكمة" الأصليين - ينبغي أن يكونوا على رأس القائمة. لكن محب الحكمة والمحب الحكيم - كما تبين - شيئا مختلفان جداً.

بينما معظمنا قد غلب من الحب من قبل، لكن قصص المصاعب الرومنسية والطيش لكثير من الفلاسفة تأخذ نصيب الأسد من الفشل والغلبة. قد تكون قد نسيت عيد زواجك، لكنك على الأقل لم تخنق زوجتك (لويس ألثوسر)، أو تتبن عشيقتك كابنة لك (جين بول سارتر)، أو أن تُطرد لبلد آخر بسبب علاقة عاطفية (سينيكا الأصغر).

عظماء فلاسفة الغرب، أولئك الرجال والنسوة الذين ملكوا بهلوانية ذهنية ومُدحوا من قبل أساتذة مقررات الفلسفة 101 في كل مكان، هؤلاء لطالما دمروا علاقاتهم بنزعاتهم العصبية. في الحب وخارجه، الفلاسفة انتقاديون للغاية، متكبرون، متعالون أخلاقياً. نظرياتهم لا تُخرق، مواقفهم اعترافية، أسئلتهم الباحثة مصدر ازعاج. هذه التصرفات المزاجية جعلت من الفلاسفة مرشحين غير مناسبين للزواج. إنه ليس من المستغرب أن كثيراً من الفلاسفة ببساطة اعتزلوا لعبة الحب بالكامل.

بينما كثير من الفلاسفة ماتوا بئسين، حانقين ووحداً، قلة تمكنت من تخطي الفشل للوصول لزواج سعيدة. مثل ألبير كامو الذي توفي مبكراً في حادث سيارة مأساوي، قبل أن تكتشف زوجته عشيقته التي خباها حول العالم. أو هنري وورد بيتشر - الذي اشتهر في القرن التاسع عشر بسوء السمعة والعهر - وكانت زوجته مشغولة للغاية بتربية أبنائهم العشرة عن أن تفكر في تطبيقه. أو بيرتراند راسل الذي اكتشف أنه عندما يتعلق الأمر بالزواج فالمرء الرابعة هي الصائبة.

الحقيقة أن هذا الكتاب يحتوي على نماذج من آلاف العقول العظيمة التي فشلت بالحب. في كل حقبة من التاريخ، تتماشى الأدمغة الكبيرة والقلوب المحطمة جنباً إلى جنب، وكلما كبرت أكثر كلما فشلت أكثر. ربما كان بوب ديلان الأكثر حكمةً عندما اعترف: " لا تستطيع أن تكون حكيماً وواقعياً في الحب في الوقت ذاته"

بيتر أبيلارد (1079-1142)



" من الآن فصاعدًا لا يجب على أي محب أن يقتدي بي، حيث أن المرأة المرفوضة كائن مشين "

يقول الباحث الفرنسي بيتر ابيلارد بتعبيره الخاص عن نفسه أنه " أربك كل ما تُعلم من العصور " بتأملاته الفلسفية. في قمة شهرته بعد أن تغلب على معلميه في الحجج المنطقية وتأسيسه لمدرسته الخاصة، قَبِلَ أبيلارد كرسيّ مدرسةٍ نوتردام الكاتيدرالية في باريس عام 1115. محاضراته في الفلسفة الإغريقية واللاهوت المسيحي جذبت آلاف الطلاب، لكن (هيلواز الارجنتوية) تميزت من الحشد. يُعبر أبيلارد في سيرته الذاتية: " رأيتها، أحببتها، وصممت على أن أجعلها تحبني".

عاشت هيلواز مع عمها مدفع الكنيسة (فولبيرت) وهو رجل ليس يُعْبَثُ معه. مَثَّلَ هذا تحديًا صغيرًا لأبيلارد الذي صمم خطة لیسرق هيلواز من تحت عين المدفع اليقظة. كتب أبيلارد: " كنت طموحًا في اختياري (للمرأة)، وثمانيت لو وجدت بعض العوائق التي كان يمكنني تخطيها بمجدٍ ولذّةٍ أكبر". تمكن من مصادقة (فولبيرت) من خلال معارف مشتركة، وبضربة حظ وظفه (فولبيرت) لتدريس هيلواز في الفلسفة. كتب أبيلارد مختالاً بنفسه: "هل يمكنك أن تصدق ذلك، لقد منحتني امتياز مشاركته طاولته، وشقة في منزله؟ وبهذه الطريقة وجدت فرصًا لأختلي بها"

هيلواز وقعت في حب معلمها، الذي كان عمره أكثر من ضعف عمرها، سريعًا ما تحولت جلسات التدريس الخاصة إلى دروس في الجسد. وقریبًا بعدها لم يكتف حبهما بحصره على ساعات النهار، ليلتقيا سرًا في الليل "للتعبير عن مشاعرهما المشتركة". كما وصف أحد معاصري أبيلارد بصراحة: الأستاذ المتعلم "

لم يعلمها كيف تجادل بل كيف تزني". انتشرت إشاعات علاقة أبييلارد وهيلواز الغرامية في أرجاء باريس إلى أن التفت أخيراً لتعود إلى أذني (فولبرت). فقدف العم الغاضب الأستاذ خارج منزله إلى الشارع.

رفض أبييلارد أن يهجر حبيبته اليافعة. اجتمع مع خادمة هيلواز بعد أن استأجر شقة قرب منزل (فولبرت)، وطلب منها أن تكون الوسيطة بينه وبين هيلواز. لسوء حظ أبييلارد كانت الخادمة تحمل له مشاعر خاصة: (أنا واقعة في حبك، أبييلارد، أعرف أنك تعشق هيلواز ولا أؤمك، أنا لا أطمح إلا بالمرتبة الثانية في مشاعرك. لا تربك نفسك مع الشكوك، فالرجل اللبيب يجب أن يحب أكثر من شخص في الوقت ذاته، حتى أنه إذا خسر إحداهن لا يبقى محروماً).

يبدو أنه عرض معقول، أليس كذلك؟ لكن ليس لأبييلارد الذي لا تملك قلبه إلا امرأة واحدة. لقد أحبط تجاوزات (أقاتون)، فانتقمت الخادمة المرفوضة بكشف مساعي أبييلارد المستمرة للوصول لهيلواز لـ (فولبرت). كتب أبييلارد تعليقاً على ثرثرة الخادمة: " المرأة المرفوضة كائن مشين"

أصابت أبناء (أقاتون) عم هيلواز بنوبة من الغضب، وجعلت من أي محاولة يبذلها أبييلارد للعودة لنعيمه محاولةً عقيمةً. بدى أن المحبين لم يكونا قط أبعد من ذلك. ولتعقيد الأمور كان هيلواز حاملاً. لما انقطعت بأبييلارد السبل، لجأ للحل الوحيد المعقول، فتسلق جدران منزل (فولبرت)، واختطف هيلواز في محاولة إنقاذ جريئة، وأخذها بعيداً في جوف الليل. خبأها في مسقط رأسه في مدينة (بريتاني)، حيث أنجبت طفلاً حُبهم .

خوفاً من الفضيحة بدأت الشكوك تراود أبييلارد، ربما كان قد تصرف بشكل متسرع للغاية. فبادر بطلب يدها من عمها للزواج، عازماً على تخفيف حدة التوتر بينهما. وللهشمة قبل (فولبرت) عرضه للمصالحة ، وتزوج أبييلارد و هيلواز في حفل سري.

هيلواز كانت معارضةً لزوجها، لاعتقادها أنه محض عملية تجارية ستعمل على تجفيف علاقتهما من شغفها الطبيعي. قالت: " ألن يكون تقبلي أكثر كوني عشيقتك من كوني زوجتك؟ وأضافت: " بكاء الأطفال والعناية بالعائلة لا تتناسق مع الهدوء الذي تتطلبه الدراسة." وكان هذا صحيحاً إلى حد ما، أبييلارد كان قد أهمل دراساته الفلسفية بلعبه دور رب الأسرة. استجاب لمطالب زوجته وأرسلها لدير لتأمينها. انتهى أمر ابنتها تحت رعاية أخت هيلواز.

ما حدث لاحقاً كان حدثاً وصفه المؤرخون بدقة كونه " حدث محدد معروف جداً عندما أسىء لأبييلارد." فعندما اكتشف (فولبرت) أن ابنة أخيه قد نُقلت إلى دير، قام بإخفاء أبييلارد. كتب أبييلارد بموضوعية تقشعر لها الأبدان:(دخل قاتل حجرة نومي ليلاً مع شفرة حادة في يده، وجدني في نوم عميق. عانيت أكثر العقوبات التي يمكن لانتقام عدو أن ينتكرها خزيًا، باختصار، دون أن أفقد حياتي، لقد فقدت رجولتي.) في واحدة من أكثر الأمثلة الرائعة للتفكير الإيجابي التي سجلت تاريخياً على الإطلاق، تصور أبييلارد الإخفاء بمثابة التحرر من ماضيه الفاجر. وجد العزاء في دير، حيث استطاع أخيراً كتابة مكنونات قلبه. "

لقد (وجدت) في الفلسفة والدين علاجاً لعاري، وبحثت عن ملجأ ليجيرني من الحب" كتبت هيلواز في كثير من الأحيان إلى زوجها القصي، وأصبحت تبادلاتهم الغرامية أسطورة في حد ذاتها. كتبت في رسالة: " لا أستطيع أن أعيش إذا لم تقل لي أنك لازلت تحبني" وأضافت أنها تحبه كشخص وليس كرجل، اللعنة على الإخفاء."

كلما تقدمت المراسلات على مر السنين، تغيرت نبرة أبييلارد من محبٍ إلى نبرة قس. في واحدة من آخر رسائله إلى هيلواز حثها أن تُكرس نفسها للمسيح وأن تنسى حبيبها المجرور: "من الآن فصاعداً ستُسخرين نفسك بشكلٍ جادٍ للعمل في سبيل خلاصك، وهذا ما ينبغي أن يكون جل اهتمامك. لذلك ابعديني للأبد من قلبك."

أبيلارد واصل دراساته مؤسسًا دير الروح القدس (Abbey of the Paraclete monastery). لكن هيلواز رفضت أن تُبعد أبيلارد عن قلبها. عاشت بعد وفاته اثنتي وعشرين سنة ودفنت بجانبه في مقبرة الدير.

بكلماته الخاصة نحن نصنع بيتي شعر عظيمين



أضرت علاقة أبيلارد العاطفية السرية بتلميذته بعاداته الدراسية. فبدل أن يقرأ ويكتب بالفلسفة، كرس وقته لصياغة أشعار غرامية. وما يثير التعجب أنه أثبت كونه شاعرًا ذو موهبة مميزة. فبمجرد ترديد أشعار أبيلارد كان الشباب يستطيعون أن يحصلوا على "خدمات" من الشابات. كما أوضح شاعر البلاط ذو الدوام الجزئي، " أولئك الذين كانوا واقعين في الحب كما كنت، اعتزوا بتعلم [قصائدي]، وحصلوا بتطبيق أفكارهم وأبيات الشعرية على خدمات ما كانوا ليحصلوا عليها بطرقٍ أخرى". لحسن حظ الشابات العفيفات في كل مكان، فإن أشعاره قد ضاعت منذ فترة طويلة.